قراءة نقدية في رحلة محمد الزاهي الميلي من باريس إلى قسنطينة 1938

د. عزيز لعكايشي
كلية الآداب واللغات
جامعة منتوري قسنطينة.

مدة الرحلة

أربعون يوما في الطريق من باريس إلى قسنطينة،عام:1938،إنها المدة التي استغرقتها الرحلة التي قام بها الأديب الشهيد المجهول: محمد الزاهي الميلي، المولود بتاريخ:10أكتوبر 1904. بجبال الميلية، بإتجاه باريس، حيث كان في بعثة موفدة من قبل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للقيام بدور الإرشاد بين أفراد الجالية الجزائرية في فرنسا، قبل التحاقه بالثورة عام : 1957.،ثم العودة منها عبر المحطات التالية: باريس Paris، ليون Lyon ، سانت اتيان Saint-Etienne،تولون Toulon، مرسيليا،Marseille، ،البحر، تونس، وفي الأخير، قسنطينة.

وتتكون الرحلة من سبع حلقات، صدرت الحلقة الأولى منها، في عدد البصائر رقم: 124، المؤرخة في : 29 جويلية 1938. ومن هذا التاريخ، نستنتج،، أن الرحلة بدأت من باريس في: 14جوان 1938م. وإذا أضفنا إلى هذا التاريخ، مدة الرحلة المقدرة بأربعين يوما، تطابق ذلك نسبيا مع نشر الحلقة الأولى في جريدة البصائر.

وفي نهاية المطاف،سقط الأديب محمد الزاهي شهيدا،تحت وابل من الرصاص أطلقته إحدى الطائرات الفرنسية عليه وعلى عدد معتبر من رفاقه المجاهدين ،كان ذلك في شهر جويلية عام 1960م..

ويقال أنه استشهد في كمين بجبال الميلية في22 فبراير عام:1960م.ولا يزال قبره مجهولا،إلى الآن، كما ورد في الرحلة.[1]. تاركا نصا راقيا من نصوص أدب الرحلة في الجزائر، يعد وثيقة تاريخية ثمينة، تجسد عظمة الثورة الجزائرية المجيدة وتخذرها في الذاكرة الوطنية الجمعية.

الواجهة السردية والدلالية للرحلة

الرحلة بدأت شعرا ، وصفا ، ثم سردا ، ثم مزجا مدهشا و عجيبا بين الوصف و السرد من جهة ، و بين شبكة الضمائر السرديةمن جهة ثانية.

الرحلة بدأت من القمة ، من بؤرة الوصف، و بؤرة السرد ، أي رحلة بدأت من الخارج إلى الداخل للالتحاق بالوطن ، الجزائر ،ومن خلال هذا النهج الفني التطوري للرحلة، برزت رمزية هذا الشهيد المجهول،في الحفاظ على الذاكرة ومقاومة النسيان، ورغبته القوية في معانقة الوطن بقضاياه السياسية والثورية، معانقة واعية وفعالة، بحيث تبلور هذا الوعي داخل المشاهد الوصفية والسردية المكونة للرحلة، على شكل مضمون نضالي ، وفعل ثوري حقيقي موجود على أرض الواقع، ثم هو واقع موجود مجسد كذلك على مستوى الإبداع الرحلي.

الرحلة ، بدأت من باريس، التي تمثل الشمال الغرب،و ملتقى السواح وسوق التجارة،([2])، إلى قسنطينة الوطن الشرق، ، المدينة المعروفة تاريخيا برفضها وتمردها ومقاومتها واستشهادها ، ثم إنحدرت المركبة الوصفية السردية،مرورا بالكونكورد place de la concorde ساحة التماثيل المنحوتة [3] ، والشانزي ليزي Les Champs

---

[1] عبد الله حمادي، رحلة محمد الزاهي الميلي من باريس إلى.قسنطية 1938،قسنطينة، دار البعث،2004، ص ص: 27،94.

* الرحلة، جمع حققها وقدم لها، وعلق عليها وقام بنشرها في كتاب عبد الله حمادي، عام:2004، وتعد من الإصدارات العلمية لمخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، بجامعة منتوري، قسنطينة.

[2] المصدر السابق، ص:95.

[3] المصدر نفسه: 94.

Elysiesمعالمه التاريخية الساحرة،و الحي اللاتيني Quartier latin، ملتقى الثقافات، واللوفر بتحفه النادرة [4]،والمكتبة الوطنية الثرية وليون وسانتي إتيان، إلى أن تغرق هذه المركبة الوصفية والسردية في الوحل، وفي الطبارن في مرسيليا [5] ، وتغرق معها البنت الجزائرية، الضحية، في خطأ الرذيلة، وفي أوكار الفساد والدنس.

قلت : بدأت من باريس، المدينة الساحرة ، ولكنها لا تعترف بحق الاختلاف والخصوصية في الثقافة والأديان ، إلى مرسيليا، القطرة التي كسرت الكأس، المدينة التي دمرت، زهيرة، الماركة، البنت الجزائرية، وفضحت أطروحة الحداثة الغربية ،التي ترفض التسلمح والتعايش ، وكشفت عن المفارقة العجيبة، بين مدن تنمو جماليا وثقافيا وعمرانيا ومؤسساتيا بمتوالية هندسية سريعة ، ولكنها تسبح في عالم يموج بكثير من المذاهب والأفكار التي تدعو إلى التحلل من قيم الإنسان، إنها المدينة التي سحقت، زهيرة، [6] الماركة، ماسحة البيوت والطبارن [7]، ضحية الغربة والهجرة والعنصرية والاستعباد كما يروي محمد الزاهي في رحلته:

"يدفع بالبنت الجزائرية الفقر اللعين، والجهل الفاحش ... إلى الارتماء في أحضان الأوروبيين ..وهي في سن التعليم والتربية" [8]

الرحلة إذن، كما قدمها عبد الله حمادي، بأسلوب يجمع بين شعرية الفن وموضوعية البحث الجامعي، تتضمن في نظري ــ هذه الرحلة ــ غارة شنها الجنوب على الشمال، وهجوما ثقافيا خاطفا، وقعه الشهيد المجهول، محمد الزاهي الميلي . على المركز (باريس) ، وعلى الأطراف كذلك (ليون، سانتي اتيان ، مرسيليا ...)، لفك

(4) المصدر نفسه:94.

(5) المصدر نفسه:ص 83.

(6) المصدر نفسه:ص 85.

(7) المصدر نفسه: 86.

(8) المصدر نفسه:113.

الخناق على الجزائر، ومقاومة الحصار السياسي المفروض عليها، ثم عاد مسرعا إلى قسنطينة وإلى وطنه الجزائر لتحضير الثورة .

تعايش الأشكال السردية في الرحلة

هذه العملية الهجومية جاءت في شكل بنيةحميمية سردية، أنتجها التعايش بين الأدوات السردية، فحولت العالم الخارجي عن طريق ـــ الهو ـــ الأداة السردية العجيبة، إلى لوحات ومشاهد موقورة بمعاني الجمال والإشراق، فتراجعت إلى الخلف قاعدة السارد الكاتب ، الكاتب السارد أو الراوي، و انهارت الفواصل بين النص والناص ، وأن الناص صار مجرد وسيط ليس إلا، بينه وبين الأحداث المحكية .

ولما كنت أتابع الرحلة سواء من خلال التقديم الشعري الجميل لعبد الله حمادي، أو من خلال الحلقات السبع المنشورة في كتابه، لفت إنتباهي، السيولة الجمالية المعتبرة، التي تتوفر عليها منظومة الأدوات السردية في الرحلة ، جماليات المتكلم: (بعد أن حصلت على تذكرة الركوب في شيء غير يسير من الجهد والتعب.) [9]،وأيضا جماليات الغائب وجماليات المخاطب، وكذلك جماليات الحوار على قلته في الرحلة، خاصة في الرحلة الثانية (فأجبتها بأنني كنت مقيما بباريس، فردت في أدب بابتسامة..)[10].

حيث جاء الحوار في الرحلة علي شكل خطاب سردي، ينمو بفضل طاقات الوصف و التصوير، عن طريق تبادل الكلام في جمل قصار، وبذلك تحرر الحوار والسرد من المكتنة السردانية ،سردانية غريماس ،وبروب Vlademir Proup وبويون Poullion، وجرارجنيت وغيرهم من النقاد السيميائيين الحداثيين.

---

[9] المصدر السابق: ص 115.

[10] المصدر نفسه:ص 99.

وعليه أضحت الرحلة، نصا أدبيا، إمتزج فيه التاريخ بالفن، وتجاورفيه الوصف مع السرد، بحيث صار فضاء واسعا، وحيزا جغرافيا شاسعا، تفاعلت وانصهرت فيه، شبكة متنوعة من العناصر الفنية من توقيع الشعر والسرد، وفقا لقاعدة بنائية وفنيـــة، تقوم على التجاور والتعاقب والتفاعل، عبر الامتدادات الأفقية والعمودية للرحلة.

ومن خلال هذه السيولة التعبيرية التعددية، تحقق التعايش السلمي بين الوصف والسرد والحوار من جهة، وبين الضمائر السردية من جهة ثانية، و بـــذلك ســـلمت الرحلة كنص من الوقوع في خطأ الحرب الباردة بين هذه العناصر السرديةالمتجاورة .

فالموقف الوصفي لا يعلق الحكاية ولا يكبح المسار الحكائي للرحلـــة .وانمـــا يمطها ويمنحها البعد التأملي الفكري والرؤيوي، للأشـــياء والحيـــاة. وأن الموقـــف السردي يعمق البعد الحيوي والحركي والدنيا ميكي للأحداث والوقائع والشخصيات والأفضية المكانية الرمزية المثيرة للدلالة .

وبذلك صارت رحلة محمد الزاهي الميلي، من باريس الى قســـنطينة، أكثـــر جنوحا إلى الوصف غالبا والى السرد والحوار أحيانا ، وهي القاعدة الفنية التي أنقذت النص من شبح الحرب بين الوصف والسرد، و لم يعد الوصف في الرحلة خصما لدودا للسرد [11]،بل أصبح دفقا ورحيقا وإرتشاشا من الجمال الفني يجدد السرد، و يلقـــي عليه شيئا من الأناقة و الإشراق .

وبذلك سقطت أطروحة تحقير اللغة في السرد، و فازت اللغة بشرف الامتياز في النص (الرحلة) مثل المكونات السردية الأخرى، وأصبحت سيدة الموقف في هذا الإنجاز السردي المعقد، الذي يقوم علىأناقة اللغة وتشكيلها، وتراجعت إلى الخلـــف أطروحة تدمير اللغة في الكتابة السردية باسم الدفاع عن حقوق الســـرد، أو بقـــوة

(11) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998، ص 179.

الشرعية السردانية، حتى لايقع السرد في مستنقع اللغة والوصف.[12] على حد تعبير بعض السردانيين الحداثيين.

وبالرجوع إلى السبع حلقات المكونة للرحلة نلاحظ بشكل عام تعايشا متميزا لعدد من الأدوات السردية، فمن مجموع (40) أداة سردية في الرحلة الأولى، يحصد ضمير الغائب و ضمير المتكلم ¾ الأدوات السردية، بينما يحصد ضمير المخاطب : الربع الباقي ¼ تقريبا وربما أقل، كما يوضحه الجدول التالي:

مجموع الأدوات السردية	المتكلم والغائب	المخاطب
40	%75	%25

إن هذه الفروض الفنية التقريبية، تعتبر مؤشرا سيميائيا له أكثر من دلالة ومفاده أن حجم التعايش السردي في نص الرحلة ككل ، كان كبيرا وبذلك تحقق التوافق والانسجام بين من كان يضغط زمنيا بإتجاه الماضي، وبين من كان يضغط بإتجاه الحاضر .

و بناء عليه، فإن الرحلة، كمساحة وصفية وسردية ، احتضنت معظم الأدوات السردية بصدر رحب وذلك بالتعايش السلمي معها، عن طريق تشعير الغائب، و تحييد المتكلم، وتوسيط المخاطب أو عوبرة المخاطب، أي تحرير السرد من سلطة الشعر،[13] بإعتباره أداة عبور من ضمير إلى ضميرآخر ، مما يؤكد ويدعم مقولة التبادل والشراكة الفنية بين الأدوات السردية ،والانفتاح على منجزات التعبير الدرامي المعاصر.

أما في بقية الرحلات الباقيات بمشاهدها المتنوعة، وبفضاءاتها الجغرافية الممتدة، فإن النسبة الإجمالية لحضور المخاطب، تتراجع أمام تصاعد حضور الغائب والمتكلم،

---

[12] المرجع نفسه:ص 189، سيزا قاسم، بناء الرواية، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للكتاب،1984،ص 74.

[13] سيزا قاسم، بناء الرواية، ص:123.

وهو ما يؤكد المسار السردي الطولي المتغير والممتد، ويدعم الطبيعة السردية المركبة للرحلة، وأنها رحلة لم ينتجها صوت سردي واحد، وإنما شاركت فيها أصوات متعددة، وفرت للنص شكلا من أشكال التعبير الديموقراطي السردي في الرحلة .

والخلاصة، أن المؤشرات السردية تبين أن خط التطور السردي للرحلة، قد اتخذ مسارا تصاعديا ثم تنازليا، حينما بدأت سلطة السرد الغائب، في التراجع والتضاؤل، وفي الوقت نفسه، تبدأ مرحلة جديدة من التطور السردي لسلطة المتكلم والمخاطب في الصعود داخل النص.[14] وأن هذا الصعود كان قد بدأ بسا هتا، في القطار خاصة، ولكنه صار واضحا فيما بعد ومرشحا للارتفاع في نهاية النص .[15]

إن هذا التطور الذي كان ينمو بعيدا عن الصراع أو الحرب الباردة بين أشكال التعبير السردي، يعد من جماليات أدب الرحلة في الجزائر .

وأن أدبا بهذه المواصفات السردية والوصفية الاستثنائية، وأن رحلة بهذه السيولة المكانية والفضائية والتشكيلية النادرة، لجديرة بأن تكون نموذجا إبداعيا راقيا لأدب الرحلة في الجزائر، ووثيقة تاريخية مهمة في التاريخ الجزائري، للحفاظ على الذاكرة الوطنية من الضياع والإتلاف فهنيئا لمخبر الترجمة في الأدب واللسانيات في جامعة منتوري قسنطينة، رئيسا وأعضاء، وهنيئا لأدب الرحلة في الجزائر، و ثناء عطرا موفورا بمعاني الارتشاش والتقدير والعرفان لهذه الإنجازات العلمية الطيبة.

---

[14] عبد الله حمادي، رحلة محمد الزاهي الميلي، ص 11.

[15] المصدر نفسه، ص 118.